دور العقيدة في بناء الإنسان والعلوم

الأستاذ: الربيع ميمون
جامعة الجزائر

1- إن العقيدة هي الأساس الذي تبنى عليه شريعة الإسلام الطاهرة السمحة، وأخلاقه الكريمة التامة، ولهذا، فإنه يجب أن يتحلى بأكمل صورة لها خلق المسلم وسلوكه، وعلمه وعمله في الحياة حتى تكون للإسلام عن طريقه، ومن خلال ما يكون منه، وما يصدر عنه، ألوية خافقة لها حرمتها وهيبتها فوق هذه الأرض لأنها المفتاح لتلك العزة التي هي لله ولرسوله وللمؤمنين دون سواهم.

وهي من بعد هذا بداية كل كمال يمكن أن يطمح الإنسان إليه، ونهايته وغايته، فالإنسان يقول لأول مرة في حياته عن فهم ووعي: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله» هو إنسان يحدد مقامه في الوجود، ويلتزم بأن يكون لله وحده لأنه الإله الحق الذي يتوّجه إليه عباده بالدعاء والعبادة، وبالتسبيح والتمجيد، وإن بلسان الحال، ولأنه ربّ العالمين الذي بيده الأمر كله، ومن البداية، وإليه المصير، وهو أيضا، إنسان يختار طريقه في الحياة بصفة نهائية، إذ يشهد لرسول الله بالرسالة، ويلتزم بأن يعيش طبقا لتعاليمها السامية الشاملة، دون غيرها.

ولهذا، فهو إذ يقولها، ينطق بكلمة تلخص العقيدة بصفة جامعة مانعة كما يقول المناطقة، وتشير بكلماتها الفصيحة الخاصة، وبتركيبها البديع، وباختصارها البليغ إلى ما يجب على المؤمن بها من التوجه بكيانه كله إلى عالم الملكوت والتعلق به، وإلى عالم الملك والشهادة، وتقديره بما هو أهل له، ومنهما إلى ما يجب عليه في عالم الأفعال حتى يكون إنسانا ربانيا، يعرف أن وجوده من الله وبالله وإلى الله.

ويعني هذا أنها تحوله حين يتعلق بها إلى إنسان يعي ما هي ذاته على حقيقتها، وما هي علاقته بالله الذي خلقه، وبالرسول الذي بعث لهدايته وبالأرض التي تستقبله على ظهرها، في يوم ما، إلى حين، وبالناس الذين يحيطون به ويعيش معهم، ويعاملهم ويعاملونه، ويسعى لهم وهو يسعى لنفسه لأنه منهم، وهم منه.

2- هذا، ويصير هو يرتقي إلى هذه الدرجة من الوعي العالي، يصير إنسانا يبرهن بحياته على أن كلمة الشهادة بيان بليغ لا تتناهى بلاغته عن الحضرة الربانية، وطريق لدّني يسلكه الإنسان إليها لمعرفة نفسه على حقيقتها، ولمعرفة ربه كما يجب أن يعرفه، ولمعرفة هذه الدنيا بما هي أهل له. ولهذا، فهي تزيد في وعيه بما لا يتناهى، وتزيد في قدرته على الفهم والمعرفة وعلى المقارنة

والتقويم، وعلى الحكم الصحيح، من أجل الفعل، والاستجابة له، أما بقبوله أو رفضه، داخل الدائرة المتناهية – اللامتناهية، والضيقة – الواسعة التي ترسمها له، وهو ينطق بها، ويصير من أهلها، بخطوط من نور.

3- وهي، أن تجعله في هذا المستوى من الكمال، تحرّره من كل الآلهة الباطلة، وتُسَمُو بِهِ إلى مقام العبودية لله الحق دون سواء، وتشرفه بزينة الإنسان المسؤول أمام خالقه، عن نفسه، وعن بني جنسه، ومن هذه الأرض وهذا الكون لأنه منهما، ولأن الله لم يخلقهما، ولم يخلقه بهما إلا بالحق ومن واجبه أ يكون في مستوى هذا الحق، فالحرية من جهة، والمسؤولية من جهة أخرى، هما الصفتان اللتان تميّزانه عن الموجودات الأخرى بصفة خاصة، وهما، من بعد هذا، صفتان لا تمنحهما له بالحقيقة إلا كلمة الشهادة، إذ تحلو لحريته حقول مشاريعها، ولمسؤوليته حدود إثباتها لذاتها، وتأكيدها لها، ولهذا، فهي ليست عبارة خاوية تعرب بها عن واقع موهوم ولكن عبارة مشحونة بما لا تحمي من المعاني، والدلالات، والعلوم، والإشارات توجهنا إلى الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد، وتحلو لنا حقيقة وجودنا، وما هو مقامنا بالنسبة إلى وجوده جلّ وعلا.

4- إن وجود الله جلّ وعلا وهو ما تثبته لنا كلمة الشهادة إذا فهمناها على حقيقتها، وصارت منا، وصرنا منها، ووجود الله هو الذي يجلو لنا حقيقة وجودنا، وحقيقة الرسالة التي بعث بها سيد الخلق إلى البشرية كلها، في زمانه، ومن بعده إلى يوم الدين، في ذاتها، وفي علاقاتها برسالات الأنبياء عليهم السلام من قبله، إذا كان الإيمان به يملأ قلوبنا، وتهتدي به عقولنا، ويعني هذا أن وجود الله الواحد الأحد الذي تثبته الشهادة، ويقّر به المسلم لدى نطقه بها، لا يبرهن عليه هذا الأخير بالأدلة العقلية المحدودة، ولكنه شهد له بالاعتماد على علم يغمر كيانه كله لأنه يحصل له عن مشاهدة أو معاينة ببصره من جهة، وبصيرته من جهة أخرى، فيذعن له عقله، وينقاد بالله وجدانه، ويهفو إليه قلبه، ويتعلق به كيانه لأن ما يتجلى له في هذه المشاهدة هي الدلائل التي نصبها الله لخلقه، وهداهم إليها ليعرفوا وجوده ووحدانيته عن طريقها، ويشهدوا بهما له، كما شهد بهما لذاته العلية في قوله جلّ من قائل: «شهد الله انه لا إله إلا هو و الملائكة، وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم».

5- أنّ شهادة الله لوجوده ووحدانيته هي التي تجعل الإنسان، في النهاية يشهد له بالوجود والوحدانية، كما تشير إلى ذلك تلك الآيات العزيزة الغالية من سورة النور التي يبين فيها الله جلّ وعلا لخلقه أن هدايته لهم في الظهور والجلاء، هي مثل النور الذي ينبعث من مشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء (من جهة) لو لم تمسه نار ويصدر عنه نور على نور من جهة أخرى.

ويبين لهم فيها أنه يهدي لنوره من يشاء من عباده فيعيش في النور، ويتجلى بزينة العمل الصالح في الدنيا، ويفوز بسعادة النعيم المقيم والثواب العظيم في الآخرة، ويبين لهم فيها، أيضا، كيف يكون الكافر في أعظم أنواع الظلمات في الدنيا، وفي أشد أنواع الخسران في الآخرة، ثم يتبع هذا كله بالدلائل القاطعة التي تبهر العيان كله، وتتملك القلب، وتملؤه بنور الإيمان، وتزيل عن الأعين غشاوتها فترى نوره هذا حتى وإن كان ساطعا، وترى أن كل شيء له أية تدل على أنه الواحد.

وهي دلائل يعبر عنها، بلغة قدسية عالية يتأثر بها كل إنسان في أوقات صحته وصفائه، تسبح من في السماوات والأرض وما بينهما من الطيور له جلّ وعلا، وتصريفه للسحاب المسخر بين السماء والأرض كما يشاء، وخلقه لهذه الأنواع الغريبة العجيبة التي لا تحصى من الحيوانات في البر والبحر، والتي يمتاز كل منها بخواص هي له دون سواه، تدعو إلى التساؤل والحيرة، وإلى التسبيح والتمجيد.

أنّ هذه الدلائل هي دلائل الكتاب العزيز على وجود الله ووحدانيته، وهي وأمثالها أقوى وأنجع من غيرها لأنها تقوم على المشاهدة بالبصر والبصيرة، ولأنها تغمر الكيان كله، وترفعه على أن يكون شاهدا عن يقين لا يتزعزع، ولا يشوبه ريب، لوجود الله الواحد الأحد، رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين.

ويعني هذا أنها دلائل لا يبرهن المؤمن بها، على وجود الله بعقله وحده، ولكن بكيانه كله، إذ يصير هو نفسه برهانا له، بفضله تعالى عليه، وبما ينكشف له من حقائق الموجودات حين يرجع إليها ويتفكر فيها، ويتأملها في تعدّدها وتنوعها، وتستمع إلى تسبيحها وتمجيدها، ويفهم منهما أنهما لخالقهما دون سواه.

وهو، إذ يصل إلى هذه الدرجة العالية من الإيمان، يصير إنسانا آخر، بداية كل شيء لديه وغايتها في عقيدته، لأنه يعيش ويحيا بما تمليه عليه من التوجيهات التي تكيّف علمه فتصير لدنيا، وتكيف سيرته وأفعاله فتصير شرعية سمحة، وتكيف مطامحه فتصير لله والفوز برضاه.

6- إن المؤمن الذي تلابس الشهادة روحه، وتملأ تعاليم الكتاب العزيز قلبه، وترقى به عقيدته إلى تلك المقامات التي لا يعرف الإنسان في سواها معنى للكمال لا يمكن أن يكون وجوده بمظاهره كلها، وعلومه وتطبيقاته إلا انعكاسا لأنوار عقيدته، أو إيمانه أو شهادته بأن إله إلا الله، وبأن محمد رسول الله، وما علينا إلا أن نرجع إلى كتاب الإيمان من صحيح البخاري، أو إلى الصحاح الأخرى لنعرف ونرى أن أخلاق المؤمن وأفعاله كلها هي مثل الشهادة من الإيمان، وأن الإيمان يؤثر عليها كما تؤثر عليه، فحب الله والرسول من الإيمان وكذلك الصلاة والزكاة والصوم، والحياء والتقوى، والتوكل والرحمة، والتوبة، والنظافة والإنصاف من النفس،

والإحسان للجار، والرأفة بالحيوان، وإماطة الأذى عن الطريق، والجهاد، لن كل واحد منها يعرب عنه، ويصدقه أو يكذبه، سواء كان من الأخلاق أو العلوم، أو من العبادات أو الأفعال، فالإنسان الذي يشهد، أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، شهادة هو في مستوى ما تدل عليه، وتشير إليه من حقائق الوجود العلوي والسفلي، ومن حقائق السيرة الربانية التي يجب عليه أن يلتزمها بإتباعه لسيد الخلق، لا يمكن أن يكون ملحدا ولا يمكن أن يكون غير مسلم، ولا يمكن أن يكون سيء الخلق ولا إنسانا حيوانا كما يقول الإمام محي الدين بن عربي، ولا يمكن أن يكون من السكيرين أو الزناة، ولا من القمارين أو الجهلة، ولا من الكذابين أو الخونة، ولا من اللصوص أو البخلاء، ولا من المفسدين في الأرض أو القتلة، وتلك لأن عقيدته تمنعه من كل هذا، وتبنيه وتكيفه دائما بما يجعله يعلو في مدارج الكمال ويسلك طرق العزة طبقا لعلاقته بها، ودرجة تجليها له.

7- وأنه يمكننا أن نرجع إلى الصحابة رضوان الله عليهم لنرى كيف حولتهم عقيدتهم إلى جنود للرحمن، وعسكر للقرآن ينشرون تعاليمه في مشارق الأرض ومغاربها بالدراية، ويعلمونها للناس بانقيادهم لها في حياتهم، ويشرحونها لهم بالطريقة المثلى، ويدافعون عنها، ويحمونها من أعدائها بأسلحة العلوم وقوة حججها.

لقد كانوا رضوان الله عليهم أمثلة حيّة للأخلاق السامية، ولتلك العلوم اللدنية التي تفيض القلوب بها حين تعمرها المفيدة الصحيحة، وتتملكها تعاليم القرآن الكريم، وتصير هي التي توجهها، وتدلها على الطريق الذي يجب سلوكه كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله جلاّ وعلا: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يسكبون﴾ (سورة الأعراف، 96).

8- هكذا يقول الله في القرآن الكريم، وانه ليمكننا أن نستنتج مما يقوله أن العقيدة هي طريق الفتح من الله على عباده بالبركات، وطريق المعرفة والنور، وطريق الأخلاق والكمال، والتقدم والرقي، والقرب من الله والاهتداء بهديه، ولهذا تغيّر الإنسان وما به، حين يتحلى بها، وتؤهله للمعاني، وتحميه وتبعده عنة كل الآفات التي تقضي على إنسانيته أو تشوهها، وتوجهه إلى الاشتغال بالعلوم المختلفة لأن هذه تعينه على فهم قضاياها، وتكشف له عن تفسيرها ومعناها، وتؤكد له يما يزيدها رسوخا في أعماقه.

9- هذا، ولقد كانت بهذه الصفة مع الخلفاء الراشدين، ومع كبار الصحابة وصغارهم كما يمكننا أن نتحقق منه إذا رجعنا إلى قول يحي بن عامر في جوابه لرستم ملك الفرس في القادسية حين سأله عن سبب مجيء أصحابه إلى بلاده: «جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها». إن هذه الكلمة التي

نطق بها ربيع بن عامر أمام ملك الفرس جامعة مانعة، يعجز عنها حتى كبار فلاسفة السياسة والحضارة، ولهذا فإنه يمكننا أن نأخذها كمثال نستدل به على الدرجة العالية التي صارت لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعقيدة التوحيد، وتعاليم القرآن التي هي تفصيل لها، تمازج أرواحهم، وتحولهم إلى ناس يعرفون من الدين لبّه، ومن السياسة مناهجها القوية، ومن العلم جواهره، ومن الحياة فوق هذه الأرض معناها وغايتها.

10- لقد صاروا من طبيعة أخرى، ولقد سار المسلمون من بعدهم على خطاهم فكانت لهم السيادة التي هم أهل لها بين الأمم، وبقيت لهم هذه السيادة إلى أن حادوا عن الطريق فزالت شوكتهم ودار الزمان عليهم، وصرنا نحن، بسبب ما آلوا إليه في وضع لا نغبط عليه، لا لأننا دون الناس، أو لأننا محتاجون إليهم في كل شيء، ولكن لأننا ابتعدنا عن كتاب الله ولغته، ومن العلوم التي بنى أسلافنا قصرها المنيف بتوجيه من عقيدة التوحيد، ولأننا صرنا على هامش من الحياة لا معلم لنا فيه يمكننا الاعتماد عليه لنستعيد أمجادنا القديمة، ولتصير لنا الكلمة المسموعة بين الأمم والناس، وأنه يمكننا أن نقدر مدى ما وصلنا إليه من الانهيار إذا رجعنا إلى ما كان عليه أسلافنا أيام عزهم، ورأينا كيف كان حرصهم، وحرص علمائهم بالخصوص على فهم عقيدتهم، والمحافظة عليها، ونشرها بين المسلمين، وتبليغها إلى غيرهم، وحمايتها، وبيان فضائلها، وأسرارها، وأبادها من جهاتها كلها، وتطويع كل شيء إلى هيمنتها، والعمل بالتوجيه منها لتحقيق غاياتها، في كل عصر، بالوسائل العلمية الناجعة التي تناسب العصر، ويقتنع بها الناس فيه.

لقد اعترضتهم، وهم يعيشون بها ولها مشاكل عدة عن قصد أو غيره، ولكنهم لم ينهزموا أمامها واجتهدوا فيها، وقد كانت أدوات الاجتهاد متوفرة لهم، فتغلبوا عليها، أيا كان نوعها، بأسلحة العلوم وقوة حجمها، واستطاعوا بفهمه لأسرارها وما تلّمح إليها إشاراتها أن يضمنوا للمسلمين سلامة العقيدة والطمأنينة، وأن يجعلوا ما يصدر عنهم وما يتحلون به في حياتهم من الأخلاق والمعارف والأعمال والمطامح صدى لندائها، وتحقيقا لتعاليمها، وطاعة لله يطلبون بها الفوز برضاه.

11- ويعني هذا أن كلمة الشهادة، في نظرهم، هي طريق الإنسان إلى الإيمان الحق بالله ورسله، وطريقه بالتالي الأخلاق الكريمة التامة التي هي قربته إلى الله، طريقه إلى العلوم المختلفة التي تمنحه المعرفة الكاملة به.

وهو ما يشرحه لنا الإمام أبو حامد الغزالي عندما يتحدث عن هذه الكلمة الغالية، ويبين أنها تتضمن، على إيجازها، إثبات ذات الله الواحد الأحد، واثبات صفاته، واثبات أفعاله، واثبات صدق الرسول عليه السلام، وعندما يتحدث عن علم الكلام ويبين انه المتكفل بإثبات مبادئ العلوم

الدينية كلها لأنه العلم الأعلى رتبة، ولأن منه النزول إليها لأنه كليّها، ولأنها جزئياته، وعندما يتحدث عن العلوم كلها، ويبين أنها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله، هو بحر الأفعال التي لا ساحل له، والذي لا تنفذ كلماته حتى ولو كان البحر مدادا لها، ومن بعده سبعة أبحار تمده.

هذا ، وأنه ليمكننا أن نتبين ما يقوله الإمام أبو حامد الغزالي إذا تأملنا في الشفاء والمرض، واعتبرنا كيف يحاول الطبيب أن يعرف المرض ليجد له علاجا بما يعرفه من علم الطب، فينجح في بعض الأحيان ويفشل في أخرى لأنه غير عالم، ولكن لأن مظاهر المرض الذي هو من أفعال الله كثيرة لا تحصى، ومن المستحيل عليه، وعلمه محدود، أن يعرفها كلها، وأن يعرف طريقة علاج كل منها، إنه يحاول أن يصل دائما إلى نتيجة ترضيه، ولكنه كثيرا ما يجد نفسه، وهو أمام مرضاه، مضطرا للاعتراف بعجزه وجهله، ويحب ويخشاه، ولا يحب الله ولا يخشاه إلا العلماء.

إن علم الطب برهان على وجود الله، وهو بهذه الحال لأنه مغترف من بحر أفعاله جلاّ وعلا، ومثله علم الهيأة، وعلم تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهرا وباطنا، وعلم الروح وأسرارها، وعلم الصناعة وعلوم الحساب والفن، وكل العلوم التي يشتغل بها الإنسان ويسعى إلى اكتناه ما تدرسه والإحاطة به، إنها كلها مغترفة من بحر أفعاله جلّ وعلا، ولنا في الاشتغال بها طريق عزيز لمعرفة نفوسنا ومعرفة الله جل وعلا، والاقتراب منه. وهي من بعد هذا، علوم ذات علاقة بكلمة الشهادة وبالقرآن الكريم وبعلم الكلام في النهاية.

إنّ هذا الأخير هو في النهاية، وفي الواقع، أيضا فوق العلوم كلها، لأنه يوجه إليها كلها، ولأنها كلها طرق الله. وهو بهذه الحال لأنه العلم الأشرف الأعلى الذي تراد له كل العلوم، أن لم يقصده أصحابها، ولأنه العلم الذي لا يراد لغيره لأنه العلم بذات الله الغني القدير، الذي يمكننا أن نترقى فيه من آثار أفعاله جلّ وعلا إلى أفعاله، ومن أفعاله إلى صفاته، ومن صفاته إلى ذاته العلية، كما يمكننا أن ننزل منها إلى آثار أفعاله، وأن تغلق الدايرة، فترى حقيقة وجوده بالنسبة إلينا، وحقيقة وجودنا بالنسبة إليه وإلى مخلوقاته، فتزداد أيمانا به واقترابا منه، وسعادة بعبوديتنا له.

12- إن العقيدة في الإسلام هي البداية والنهاية، ولهذا فهي الطريق الصحيح إلى كل الفضائل العليا، والعلاج الناجح من كل الآفات الفردية والاجتماعية ومفتاح كل العلوم النافعة، والقلعة الحصينة التي تتحطم وتتبخر أمام سواها الأخطاء، والأباطيل والخرافات والأوهام.

ولهذا فإن علومها، وهي كثيرة وجد صعبة، يجب أن يعود لها بيننا المقام الذي كان لها مع الإمام أبي الحسن الأسعدي والباقلاني، وأبي حامد الغزالي، والفخر الرازي

والشهرستاني ومحمد بن يوسف السنوسي الجزائري، وغيرهم من العلماء الأعلام الذين جاهدوا في الله حق جهاده. بقوة العلم لأنهم كانوا يعرفون أن لظهور الإسلام فوق الأرض إلا به. وهي علوم يمكن أن يعود لها مقام بيننا إلا إذا صار تكوين معاهدنا للعلوم الدينية في مشارق الأرض ومغاربها، في مستوى تراث الأسلاف الذي لازلنا نجهل الكثير منه، وفي مستوى ما يقتضيه عصرنا من العلوم لحل مشاكله والقضاء على آفاته التي هي مشاكلنا، أيضا، وآفاتنا.

إنّ مستوانا في هذا المجال جد ضعيف، وهو سبب ما نحن فيه، ونعاني منه في كل مجالات حياتنا. ومن واجبنا أن ننتبه إلى ما نحن فيه ونعاني منه، وأن ندرسه بجدّ، وأن نستخرج العبرة منه لأن قصورنا كثيرا ما يخفيه عنا، وكثيرا ما يصرفنا عنه للاشتغال بما لا جدوى لنا فيه، أو للغوص في بحار أحلامنا وادعاءاتنا.

إن الإسلام هو دين العلم. ومن واجب المسلمين كلهم أن يكونوا له علماء، ومن الواجب عليهم أيضا، أن يحترموه وأن لا يتحدث عنه إلا العلماء العارفون بالحقيقة، كلّ حسب درجته في العلم ومستواه فيه.

هذا ، ويوفقنا الله إلى ما فيه رضاه، أنه نعم المولى، ونعم النصير.